وجهُ الشّبه بينَ الِارتباط والِاعتباط

بعضٌ مِن اعتراضات الآمدي على أبي تمّام

الباحث عبد الحكيم برنوص
طالب باحث في سلك الدّكتوراه
المغرب

ملخّص البحث

تأخذ هذه الدّراسةُ على عاتقِها أن تبحثَ في العلاقة بين طرفي التّشبيه، المشبّه والمشبّه به، حيْثُ تطرحُ العلاقةُ بين طرفي التّشبيهِ إشكالَ حُرية الشّاعر في إنشاء هذه العلاقة، ومدى انْسجامِ هذه العلاقة مع العُرْف اللّغوي، ومع ما اعْتادَهُ المتلقيّ، ممّا يضعُ وجهَ الشّبه (المشابهة) على المحكّ، وقد قسّمتُها ثلاثة أقسامٍ:

- القسم الأول: الشّبهُ بين الارتباط والِاعتباط.
- القسم الثاني: سُلطة اللّغة والتّشبيه الردّ على صاحبه.
- القسم الثالثُ: التّشبيه ذو المقدّمة الخاطئة

حاولتُ في القسم الأول أنْ أبيّن أنّ صحّة التّشبيه تمشي اطّرادا حسبَ المسافة التي يُوقِعها الشاعرُ بين طرفي التّشبيه، ولذلك قسّم أغلبُ البلاغيين أنواع التّشبيه باعتبار هذه المسافة.

وفي القسم الثّاني، وكيْ أبيّن حجمَ سُلطة النّقد المبنية على الذّوق واللغة والتّداول، استعنتُ بآراءِ ناقد معروفٍ هو الآمدي الذي خطّأ أبي تمّامٍ الشّاعرَ في كثيرٍ منْ تشبيهاته، مُعزيا الأمر في كثير من الأحيان إلى سلطة اللّغة، وما اعتاده النّاس.

وفي القسم الثّالث، استرسلتُ القولَ حول علاقة التّشبيه التي تُخطّأُ قبلَ أنْ تنعقد، عندما يكون أحدُ طرفي التّشبيه ذا منطَلَقٍ، لا يتيح ربطهُ بِنظيره أو شبيهه.

ثمّ أكملتُ بخاتمة، فيها أهمّ ما استخلصتهُ، وطارحا تساؤلا حولَ علاقة التّساهل في إمضاء التّشبيهات بالوهم والغموض.

Research Summary

This study takes it upon itself to investigate the relationship between the two sides of the simile, the simile and the simile, where the relationship between the two sides of the simile raises the problem of the poet's freedom in creating this relation, and the extent to which this relation is in harmony with the linguistic custom, and with what the recipient is accustomed to, which puts the face of the similarity (similarity) is at stake, and I have divided it into three sections:

- The first section: the similarity between correlation and arbitrariness.
- The second section: The authority of language and analogy to respond to its owner.
- The third section: the analogy with the wrong premise

In the first section, I tried to show that the validity of the simile moves steadily according to the distance that the poet signs between the two sides of the simile, and therefore most rhetoricians divided the types of similes in consideration of this distance.

In the second section, and in order to show the size of the power of criticism based on taste, language and deliberation, I used the opinions of a well-known critic, AL AMIDI, who erred ABU TAMMAM the poet in many of his similes, attributing the matter in many cases to the authority of language, and what people are accustomed to.

In the third section, I went on to say about the analogy relationship that is mistaken before it takes place, when one of the sides of the analogy has a starting point that does not allow it to be linked to its counterpart or similar.

Then I completed with a conclusion, in which the most important thing I extracted, and raised a question about the relationship of leniency in signing analogies to illusion and ambiguity.

مقدّمة

إنّ دأْبَ النّاس في إجراء كلامِهم أنْ يَسْعَوا إلى إعطائه أكثَرَ ما يستطيعون منَ التّوضيح والقوّة والتّبيين، ليبلُغوا به مسامعَ النّاس وأذّهانَهم. فيزيدون فيه بالبراهين والحُججِ من جهةٍ، وقد ينزعون منزعا آخرَ في تحقيق بُغيتهم فيُشبّهون.

ولما كان التّشبيهُ عمليةً لُغوية تواصُلية، يُلجأ إليها في أثناء تبادلِ المعاني والدلالات، فإنّ المتكلّم يسعى عمدا وعلى السّجية، رابطا بين المعنى الأول المراد والمقصود، والمعنى الثاني المعضِّد والمبيّن.

يتبادرُ إلى الذّهن أنّ العلاقة التي تجمع بين طرفي التّشبيه سابقةٌ على إجراء التّشبيه، علاقةٌ كامنةٌ بالقوة، أفلحَ الشّاعرُ في إظهارها بالفِعل في البيت الشعريّ، وكأنّ بينَ الأشياء تشاكلا وتوافُقا، يُكشفُ عنه برابط التّشبيه، وباسم وجه الشّبه.

لا ينبغي أنْ يُفهم منْ هذا المقول أنّ كَوْنَ المعنى مبنيٌّ على التّنافر والتجاذب بالضّرورة، فالقول مقصورٌ على أنّ آلية التّشبيه عمليةٌ يقوم بها الشّعراء لإنشاء حُزمٍ من الثّنائيات والمتقابلات، تختلفُ من شاعرٍ إلى آخر. فقد يصل الأمر أحيانا، حدّ التبادل بين طرفي هذه الأزواج من المعاني، عندما يحلّ الشاعر أحدَ حدّي الثّنائية فيربطُه بطرفٍ آخر، مُنشئا علَقَة أخرى بطرفِ تشبيهٍ جديدٍ.

ترومُ هذه الدراسةُ تبيانَ أنّ جامعَ الشّبَه الذي يُعرفُ بوجهِ الشّبه عادة، ليس من الضّيّق والحصْر الذي يرهَنُ الشاعرَ، ويُوقعه في عنَت طلبه، إلّا أنّ أبي القاسم الحَسن بنَ بِشرٍ الآمدي يُطوّق كثيرا منْ تشْبيهات أبي تمّام بِطوْق اللّغة والعُرفِ والتّداول، فلا يُجيز منها قدْرا كثيرا، مُنْفِذا سُلطة اللغة والعرُف وما اعتادهُ الناس.

فهلِ اقترب أنْ يُسدّ ويُغلق مسدّ التّشبيه؟ بعدَ أنِ استنفدَ الشّعراء تشبيهاتهم، وذلك فرضا منهم على التقيّد بالحد الأدنى الواجب توفرّه في ثنائيات التّشبيه، بعد أنْ فرضَ الذّوقُ والنّقدُ شرطَ المناسبة الأدنى بين الطّرفين؟.

أمْ أنّ أمرَ المناسبة بين طرفي التّشبيه مباحٌ إباحة لا تُحدّ، وللشّاعر أو مُنشئ القول أنْ يُنشئ ما شاء له من تشبيهاتٍ، لا يُراعي في ذلك، غير ما تجودُ به مُخيّلته.

التّشبيهُ بين الاعتباط والارتباط

اعتاد النّاس أنْ يُقرنوا إنشاءً (المنشئُ)، أو يتلقّوا سَمعا (المتلقّي) بين الخدّ والوردة، وبين الشّجاع والأسد، وبين الهمّ واللّيل، وبين الكريم والبَحر، وغيرها من المتوازيات التي قُتلت إنشاءً. فيُصبحُ التّشبيهُ حينها إنشاءً أو عقدا، فهو "العقدُ على أنّ أحدَ الشّيئين يسُدّ مَسدّ الآخر في حِسّ أو عقل"[1]، ويُكتفى بإنشاءِ هذا الرّبط بين المشبّه والمشبّه به، سواء" ناب منابَهُ أو لم ينُب"[2]. فقد تصغرُ المسافةُ بين الملزومَين (بتعبير السّكّاكي) وتكبرُ، وباعتبار

موقع كلّ طرفٍ داخل هذه المسافة تتحدّدُ أنواع التّشبيهِ، "تشبيهٌ مُفرطٌ، وتشبيهٌ مُصيبٌ، وتشبيهٌ مُقارِبٌ، وتشبيهٌ بعيدٌ يحتاجُ إلى التّفسير، ولا يقوم بنفسه، وهو أحسن الكلام"[3].

يعقدُ الشّعراء علائقَ بين طرفينِ، مُشبَّهٍ ومشبَّه به، مُستعار لهُ ومستعار منه، وفي هذا الرّبط ما يكونُ ظاهرَ الوشيجة، سهلَ الكشْف، لا يُحتاجُ معه إلى تأوُّل، "كَتشبيهِ الخُدود بالورْدِ، والشَّعْر باللّيل، والوجه بالنّهار، وتشبيه سِقْط النّار بِعين الدّيك، وما جرى في هذا الطريق"[4]. ومنها ما يُلزِمُ التّأوُّلَ والكشف والرّوية، فقد يأتي التكلّفُ بعكس ما أُريد لهُ، يُتعبُ ولا يُجدي، ويُؤْرق ولا يورقُ. لِهذا ذُمَّ هذا الجنس، فهو يُطمعُ ويَسْحبُ على المواعيد الكاذبة، "وذلك مثلُ ما تجدُهُ لأبي تمّامٍ منْ تعسُّفِه في اللّفظ، وذهابِه به في نحوٍ من التّركيب لا يهتدي النّحو إلى إصلاحِه، وإغرابٍ في التّرتيب يَعمى الإعرابُ في طريقه ويضلّ في تعريفه، كقولهِ

ثانيه في كبِدِ السّماءِ، ولم يكنْ   لاثْنَينِ ثانٍ إذْ هُما في الغار"[5].

يقعُ طرفا التّشبيه على مسافةٍ بعيدة، فلا تكونُ بينهما مشابهةٌ، أيْ لا وجهَ شبه بينهما، والمرجعُ في بُعْد المسافة وخُفوت وجهِ التّشبيه راجعٌ إلى ما اعتاده السّامعُ. سواءٌ أكان متلقيا أو ناقدا، في مخزونه الذّوقي أو النّقدي، ولهذا السبب كانَ الشبهُ بعيدا في هذا البيت

"بلْ لوْ رأتْني أُختُ جيراننا   إذِ أنا في الدّار كأنّي حمارُ

فإنّما أرادَ الصّحة، فهذا بعيدٌ لأنّ السامع يستدلّ عليه بِغيره"[6].

لمْ يُوفّقِ الشّاعر في إمضاء تشبيهه، فجعلَ لِقوّة الجِسم مُشبَّها به، لهُ في ذاكرة الناس معانيَ زائدةً عن قوة الجِسم. ولذلك عُدّ التشبيهُ بعيدا غريبا، بالنّظر إلى المسافة التي ينبغي أنْ يقطعها السّامع رابطا بين طرفي التشبيه، فلا يُنتقلُ "منَ المشبَّه إلى المشبّه به إلا بعد فكرٍ، لخفاء وجهِه بادئ الرّأي"[7].

وقدْ يتباعدُ الطرفان اللّذان أُريد لهما الارتباطُ بجامع التشبيه، فلا يستقيمُ التّشبيه، ويعسرُ على المتلقّي تخيّلُ الصّورة المرجُوة، لا يعرفها السّامع، ولا سبقتْ إلى ذهنه، "وحُسنُ التشبيهِ إنّما هو في تقريبِه بين بعيدينِ"[8]. فمِنَ التّشبيهات ما يُنتجُ ويُثمر، ومنها "عُقمٌ لمْ يُسبَقْ أصحابُها إليها، ولا تعدّى أحدٌ بَعدَهم عليها، واشتقاقُها من الرّيح العقيم، وهي التي لا تلقّحُ شجرةً، ولا تُنتجُ ثمَرَةً"[9].

سُلطة اللغة والتشبيهُ الرَّدّ على صاحبِه

يرى أبو القاسم الحسن بن بِشر الآمدي أنّ الشاعر ليس حرّا في استعمالِه اللغة، فإذا أفرطَ جاءَ كلامُه منافيا للمعهود والمعروف في استعمالها، ولِما عهِدهُ الناس. فلمْ تكُنْ جريرة أبي تمّام سوى أنّه جَعل المتشابهَين، بعد إجراء

التشبيه، على مسافةٍ بعيدة، فلا يقطع السّامعُ هذه المسافة، إلّا بعد "الكدّ والفِكر وطولِ التّأمّل، ومنهُ لا يُعرفُ معناهُ إلا بالظنّ والحدْس"[10]، فلَمْ يورِدْ، "منَ الاستعارات ما قرُبَ وحسُنَ"[11].

أبو تمامٍ يُجاذبُ الألفاظَ والمعاني مُجاذبةً، ويقتسرُها مُكارهةً، لهذا السّبب عِيب كثيرٌ منْ شعره واطُّرح، فلمْ تُجزْ مُؤسسةُ النّقد، مُمثلة هنا بأبي القاسم الآمدي، للشّاعر أنْ يُراكِبَ بين الألفاظ ومعانيها، والتراكُب يعني أن ينقُل الشاعرُ اللفظَ ومعناه فيسنده إلى لفظ آخر، يستدعي بالوضع معنى معهودا متعارفا عليه.

وقد لا تُستمدّ المشابهة منَ التّخييل، ويُؤتى بها منْ أحداث التّاريخ التي لم تقعْ، فتنفصِمُ العُروة بين طرَفي التّشبيه، "ولهذا عابَ نُصيبٌ على الكُميتِ قولَهُ

كأنّ الغطامِطَ مِنْ غَليِها   أراجيزُ أسْلَمَ تَهْجُو غِفارا

وقال لهُ: أخطأْتَ، ما هَجَتْ أسلمُ غِفارا قطُّ. وأرادَ نُصيبٌ منَ الكُميتِ أنْ يكونَ شبّهَ بِشيء واقعٍ معروفٍ"[12]. لقدِ التمس الكُميتُ علقةَ بينَ غليْ الغطامطِ، وبين هجاء قبيلة أَسلمَ لقبيلةِ غفّارٍ، غيرَ أنّ التاريخَ ينفي حدوث ذلك، فأبطلَ نُصيبٌ هذه المشابهة المفترضة وخطّأها.

يذكرُ ابنُ سِنان الخفاجي أمثلةً أُخَرَ للتّشبيهِ غير الموفّق، مِثل هذا البيتِ لِأيمن بنِ خُزامِ

فإنّا قدْ وجدْنا أمّ بِشرٍ   كأمّ الأسدِ مِذكارا ولودا

فإنْ كانتْ أمُّ بِشرٍ ولودا تَلِدُ الذّكورَ، فليستِ اللّبوءةُ كذلك[13].

ويبلغُ الشّبهُ رَداءتهُ عند ابنِ سنانٍ، عندما يُمثّلُ لذلكَ بقول المرّار

وخالٍ على خدّيْكِ يبدو كأنّهُ   سَناَ البدْرِ في دعجاءَ بادٍ دُجونُها

فيعترِضُ على التّشبيهِ المحدَثِ، "لأنّ الخدودَ بيضٌ، والمتعارفُ أنْ يكونَ الخالُ أسودَ، فتشبيهُ الخُدودِ باللّيلِ والخالِ بضوْءِ البدْر، تشبيهٌ ناقضٌ للعادة"[14].

رُفِض التّشبيهُ لأنّهُ يُخالفُ المتعارفَ عليه، ولأنّهُ مُناقضٌ للعادةِ، العادة التي جعلتْ منْ بيتٍ لامرئ القيس، تسيرُ بِذكره الرّكبان، العادة التي ربّما لا يجدُها المتلقّي الغريب عن معهودِ امرئ القيس، حيثُ يقولُ[15]

وتَعْطُو بِرخصٍ غيرِ شَثْنٍ   كأنّهُ أساريعُ ظبيٍ أوْ مساويكُ إسحِلِ

قدْ يجِدُّ المتلقّي في طَلَبِ مُقابلٍ للبَنانِ النّاعِم، فلا يَجِدُ الأساريعَ الصّغارَ حُمْرَ الرّؤوس، ولا يجدُ أعوادَ الأراك، فتنقُصُ صورةُ التّشبيهِ لديهِ، ولا ينعقِدُ الشّبَهُ عندهُ.

يكدُّ الشاعرُ إذًا في ربطِ الأشياء، وعقْدِ التّشبيهاتِ بينها، فيُوفّقُ تارةً، ويُجانبُهُ التّوفيق تارة أخرى، فلِلْعُرفِ وما عَهِدهُ النّاسُ دورٌ أساسٌ في إيقاع هذا النّجاح أو تجانُفِه.

حقّا قد تستميزُ بعضُ التّشبيهاتُ، وتعلُو على الزّمن الذي أُنْتِجَتْ فيه، فتكسبُ قوة وجوديةً (أنطولوجية) لا يُماري فيها أحدٌ، فالخدّ الأزهَرُ وردٌ، والوجهُ الصّبوحُ قمرٌ، والكريمُ الجوادُ بحرٌ، لكنّ العُرْفَ الاجتماعيَ يحدُّ أحيانا من مَلَكة التّشبيهِ، فيكبحُ جِماحَها، ويُنقِصُ منْ وهَجِها في أحايين كثيرة.

فالبُعدُ بين المتشابهينِ، وانصرامُ كلّ أثرٍ للعلاقة بينهما، يُوعّرُ التّشبيهَ ويُخطّئهُ، ويُقصيه منْ معهود النّاس وما ألِفوه، لذلك كانت "الطّريقةُ المسلوكةُ في التّشبيه، والنّهجُ القاصدُ في التّمثيل عند القُدماء والمحدَثين تشبيهُ الجوادِ بالبحر والمطِر، والشّجاع بالأسدِ، والحَسنِ بالشّمس والقمر، والسّهمِ الماضي بالسّيف، والعالي الرّتبة بالنّجم، والحليمِ الرّزينِ بالجبلِ، والحَيِي بالبِكر، والفائتِ بالحُلم، ثمّ تشبيهُ اللّئيم بالكلب، والجبان بالصِّفردِ[16]، والطائشِ بالفَراش، والذّليلِ بالنّقْد[17] والفَقْع[18] والوتِد، والقاسي بالحديد والصّخر، والبليد بالحمار"[19].

يُوردُ قُدامةُ بنُ جعفر بيتا لِيزيد بن الطثْرية، يُشبّهُ فيه رأسَهُ بعدَ الحَلْقِ[20]

فأصبحَ رأسِي كالصُّخَيرةِ أشرَفَتْ　　عليها عُقابٌ ثمّ طارتْ عُقابُها

ثمّ يُعلّقُ عليهِ قائلا "فقدْ أحسنَ يزيدُ في هذا البيتِ، حيثُ تصرّف فيه في التّشبيه، وأحسنَ أيضا في تشبيه رأسِه بعدَ الحلْق بالصّخرة، وذلكَ أنّهُ قريبٌ منها في الضّخامة والملامسة واللّون المائل للخُضرة"[21]. فلمْ تسنَحْ للشّاعر في هذا المقام إلّا صورةُ عُقابٍ ذي ريشٍ كثيفٍ، تحطّ على صخرةٍ، ثمّ تطيرُ عنها، فتتركُها صلدةً جرداءَ، وكَذلك فُعِلَ بالرأس الحليقة. فبين الصخرة الملساء والرّأس الحليقة رابطُ شَبهٍ يجمعُهما، تهيّأ للشّاعر، فقابل بين الشَّعْرِ والرّيش، وبين الشّوى الحليقةِ والصّخرةِ الجرداء، وهو الرّابطُ الذي قد لا يُساغُ في هذا الزّمن، حيث غابتِ العُقبانُ التي تطيرُ عنِ الصّخور.

ولهذا السّبب أدرجَ القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني - منْ بينِ ما أدرجَ - بيتا لامْرِئ القيس، يُخطّئهُ فيه، ويعدّهُ ضمنَ أغاليط الشّعراء. يقول القاضي الجُرجاني " ثمّ عُدْتُ إلى ما عدّدهُ العُلماءُ منْ أغاليطِهم في المعاني، كقولِ امرئ القيس[22]

وَأركبُ في الرّوعِ خَيْفانةً　　كَسا وجْهَها شَعْرٌ مُنْتَشِر

وهذا عيبٌ في الخيل"[23]. فالفرسُ الخَيفانة تُشبهُ الجرادة لِخِفّتها، قال الأصمعي "وإذا غطّت النّاصية الوجهَ لمْ يكنِ الفرسُ كريما"[24].

ومِنْ أغاليطِ الشّعراءِ التي يذكُرُها القاضي الجُرجاني بيتٌ لِرؤبة، يقولُ فيه[25]

كُنْتُمْ كَمَنْ أدخلَ في جُحْرٍ يدا   فأخطأ الأفعى ولاقى الأسْوَدا

جعلَ الشّاعرُ "الأفعى دونَ الأسْودِ، وهي أشدُّ نِكايةً منه"[26]. فلمْ يُوفّق الشّاعرُ في إيقاع وجه الشّبه بين خَصْمهِم الذي أثارَهم، وبينَ الذي لاقى الأسودَ دونَ الأفعى، رَغم أنّ كِليهما ناقعُ سمّهُ مؤذٍ، فدرجةَ الإيلام فيهما معروفةٌ لدَى النّاس، لا يجهلونَها، تضعُ الأفعى أوّلا والأسود تاليا.

يفرضُ العُرْفُ سُلطتَهُ على الشّاعرِ، فلا يُجيزُ إلّا ما هو داخلٌ في هذا العُرف، فيُجانِبُ الشّاعرُ الصّوابَ ويبعُدُ عنهُ، عندما يعقدُ لِأحد طرَفَيْ التشبيهِ طرَفا آخرَ، لا مُناسبةَ بينهما. فافتقادُ المناسبة يُبعِدُ الطّرفين عنْ بعضهما البعض، فلا التزامَ بينهما بمقتضى العُرفِ والمعروف. يُبيّنُ ذلكَ قولٌ لِلقاضي علي عبد العزيز الجرجاني: "وقوْلُ لَيلى، ويُروى لِحميدة

لمّا تَخايلتِ الحُمولُ حسِبتُها   دَوْما بأيْلةٍ ناعِما مَكمُوما

والدّوْمُ لا أكمامَ لهُ، هذا ما يَعرفونهُ صباحا ومساء، ويُمارسونهُ على طول الدّهر"[27]، فأبى وجهُ الشّبه أنْ ينعقدَ بينَ التقاء الجَيشين، وبينَ الدّوم ذي الأكمامِ. وتأبّيه على الِانعقادِ راجعٌ إلى شكلِ الدّومِ كما يعرفُهُ النّاس بلا أكمام[28].

يتفاوتُ الشّعراءُ في وصف الشيءِ الواحد، يأتونَ بِمُقابِله بحسب ما تجود به مُخيّلتهم، فاللّيلُ واحدٌ وشَبيهُهُ مُختلِفٌ.

فهذا الشمّاخُ يرى اللّيلَ شَعْرَ الرّأس الدّهين، ومفرقه هو الصّبح[29]

إذا ما اللّيلُ كانَ الصّبحُ فيه   أشقّ كمَفرق الرأس الدّهين

أمّا عند زُهيرٍ فهو الأدَمُ الأسودُ، يقولُ زهيرٌ[30]

زجَرْتُ عليه حُرّةٌ، أرْحَبِيَّةً   وقدْ كانَ لونُ اللّيلِ مِثلَ اليَرَنْدَجَ[31]

وهو الموجُ الطّاغي عند امرئ القيس، فيقولُ[32]

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخى سُدولهُ   عليّ بأنواع الهمومِ لِيبتلي

أمّا الليلةُ السّوداءُ فهيَ مثلُ الطّيلسان الأخضر، وفي ذلك يقولُ كعبٌ بن زهيرٍ[33]

وليلةٍ مُشتاقٍ كأنّ نُجومها   تفرّقنَ في طيالسةٍ خُضرٍ[34]

وقدْ يُشبّهُ اللّيلُ بالجِلباب الأسودِ، كما في قولِ ذي الرُّمّة[35]

وليلٍ كجلباب العروسِ ادّرعتُهُ بأربعةٍ والشّخصُ في العينِ واحدٌ

أمّا عند النّابغة الذّبياني، فلِلّيل مقابلٌ معنويٌّ، يُماثلُ المطارِد والمدرِك، فيقولُ[36]

فإنّك كاللّيل الّذي هو مُدرِكي وإنْ خِلتُ أنّ المُنتأى عنك واسِع

وقدْ يبدو اللّيلُ نَقْعا مُثارا مغبرا، مثل قول بشّار بنِ بُرْدٍ[37]

كأنّ مُثار النّقع فوق رُؤوسنا وأسيافِنا ليلٌ تهاوى كواكِبُهُ

يتفاوتُ الشّعراء في إيقاعِ شبيهٍ للّيلِ، بينَ شَعْر الرّأس والأدَم الأسود والموج العظيم والطّيلسان الأخضر وغيرها، وداخل هذا التّفاوتُ تكبُر المسافةُ أو تصغرُ بين اللّيل ومُقابله، فيُجيدُ الشّاعرُ، أو يذهبُ في ذلك مذهبا بعيدا.

بعيدا عنْ عُرف النّاس وما ضمنّه الشّعراءُ أبياتهم، فمِنْ هذين المرجعينِ تبني مؤسسةُ النّقد أحكامها في إجازة التشبيه أو تخطِئته.

قد يتبادرُ إلى ذهنِ الشّاعرِ مقابلٌ لما يرومُ تشبيهَهُ، فيأتي بالصّورة مُعيبة، لا تناسبَ بينَ طرفيها، آنئذٍ يقعُ في نقيضِ ما كانَ يؤُمّهُ، منْ حيث إخراجُ الخفيّ إلى الظّاهر، والمستور إلى المكشوف. فهذا النّابغة الذّبياني يَقرنُ بينَ صورة الإبلِ المترَبة اللّون، تحْدو براكيبِها ورِحالهم، وبينَ قطيعِ البقرِ، تُحملُ عليها الدّلاءُ، يقول النّابغةُ[38]

تحدي بهم أُدْمٌ كأنّ رِحالهَا عَلقٌ أريقٌ على مُتونِ صِوارِ

فعندما يغيبُ التّناسبُ بين طرَفي التّشبيه، فلا تكادُ تجدُ بينهما أدنى علَقةٍ أو توافقٍ من حيث الشّكلُ أوِ الحركة، وغيرها منَ اللّوازم والخصائص. عندئذٍ يتباعدُ الطّرفانِ، وتبعُدُ المسافة بينهما، فيغدو التّشبيهُ فاترا باردا، ومِنْ ذلك إذا شبّهَ الشّاعرُ "صغيرا بِكبيرٍ، وليس بينهما مُقاربةٌ، فهوَ مُعيبٌ أيضا، كقول ساعِدةٍ بنِ جُؤية[39]

كَساها رَطِيبُ الرّيش فاعتدَلتْ لها قِداحٌ كأَعْناقِ الظّباءِ الفَوارِقِ

شبّه السّهامَ بأعناق الظّباءِ، وليس بينهما نِسبةٌ، ولوِ وَصفها بالدّقة لكانَ أولى"[40].

يُنبّهُ ابنُ رشيقٍ إلى أنّ الشّبهَ إنّما يقعُ أبدا على الأعراض، لا على الجواهر، فالجواهرُ واحدةٌ لا ينطبقُ أحدُها على الآخر، فالخدّ خدٌّ والوردُ وردٌ، يختلفان من حيثُ الجوهرُ، ويتطابقان منْ حيثُ العرَضُ، والحُمرَةُ عرَضٌ لِكليهما. فلمّا وُجِدَتِ الحُمرةُ في الورد، ناسبَ أنْ يُشبّهَ ويُوصفَ الخدّ به، تحسينا وتجميلا له. وكذلك تُشبّهُ عينُ الفتاة بعينِ المهاة، "وإنّما يريدونَ أنّ هذه العينَ لِكثرة سوادها، قارَبت أنْ تكونَ سوداء كلّها كعينِ المهاة"[41].

وقدْ يُلتمسُ للمشبَّه مقابلٌ، لا هو جوهرٌ ولا هو عرَض، بدافع إيقاع المبالغة والتّهويل، كما فعلَ امرؤُ القيس في هذا البيت[42]

أيَقْتُلني والمَشرفيّ مُضاجِعي ومسنونَةٌ زُرقٌ كأنيابِ أغوال

فلا سبيل إلى التّحقّق من صِحّة وجه الشبه في هذا البيت، فيُترك الأمرُ إلى العُرف الاجتماعي عند النّاس الذي أركزَ في مُخيّلة النّاس، أنّ الغُول ولوازمه، هيَ ممّا يخاف ويُهربُ منه. فالزّرقة المتوهّمةُ في الأنياب المتوهّمة، مقابلٌ استدعاهُ الشّاعرُ للرّماح ذات الأسنّة المشحوذة.

يحدثُ ألّا تُتداولَ التشبيهاتُ، فيوقِفها العُرفُ الاجتماعي عند قائلها الأول، فلا تسيرُ على الألسنِ، وتُترَكُ حبيسة البيتِ الشعريّ الأول، صاحبِ الانعقاد الوحيد، فتُحجَبُ عنها صفةُ التّشبيهات السيّارة وتقرُّ. تشبيهاتٌ "عُقمٌ لمْ يُسبقْ أصحابُها إليها، ولا تعدّى أحدٌ بعدَهم إليها، واشتقاقُها فيما ذُكرَ منَ الرّيح العقيمِ، وهي التي لا تلقّح شجرةً، ولا تُنتجُ ثمْرةً"[43].

ومن ذلك قولُ عنترة، يصفُ ذبابا[44]

وخَلا الذّبابُ بها فليس بارحٍ غَرِدا كَفِعلِ الشّاربِ المُترنّمِ

هزِجا يَحُكّ ذِراعَهُ بِذراعِـه قِدْحَ المُكبّ على الزّناد الأجدمِ

فقد عنَ للشّاعر أنْ يُشبّه الذّبابَ بالمغلّ النّشيط، وعنى لهُ كذلك أنْ يجمع بين الذّباب يَحُكّ ذراعيه وقادحِ الزّناد يُحكِمُ بعْضهُ بعضا، بِغرضِ إشعال النّار.

من ذلك أيضا، قولُ النّابغة الذّبياني في وصفِ النّسور[45]

تَراهنّ خلفَ القَوم خُزْرا عُيُونُها جُلوسَ الشّيوخِ في ثيابِ المَرانِب[46]

ففيه تشبيهٌ للنّسور المتوارية سوداء الرّيش، تنظرُ بأطراف أعيُنها، بشيوخٍ متدثّرين بجلابيب سود، وهذهِ صورةٌ يتيمةٌ لمْ يُكتبْ لها الشّيوعُ على ألسنِ النّاس، فهذا "التّشبيهُ عندهم عقيمٌ"[47].

يتلوّنُ العُرفُ الاجتماعيَ بِلونِ الحياة التي أنتجَتْهُ، فما كانَ تشبيها مقبولا مساغا في بيئةٍ أولى، قد يُستبْشعُ ويُنظرُ إليه منْ طرفٍ خفي في بيئة ثانية، كما فُعلَ بِبيتِ امرئ القيس المعروف[48]

وتَعْطُو برخْصٍ غيرِ شَثنٍ كأنّهُ أساريعُ ظبيٍ أوْ مساويكُ إسحِلِ

فلمْ يكنْ أمام الشّاعرِ الطّواف في البيئة الصّحراوية، غيرُ أساريع الرّمل وأعواد الإسْحلِ، يضعها مُقابلا للبَنان الدّقيق الأُملود. ولما تبدّل العَهدُ، ونعُمتْ حياةُ الشّاعر، طرأتِ الجِدّةُ على مُقتضى الحال، فانعكس ذلك في كلام النّاس وما يتداولونهُ منْ صُورٍ ومعانٍ. يقول عبدُ الله بن المعتزّ بعدَ ردحٍ منَ الزّمن[49]

أشرَفَ على خوفٍ بأغصانِ فِضّةٍ　　　مُقوّمـةٍ أثمارُهـنّ عقيـقُ

فالبَنانَةُ واحدةٌ، لكنّ المقابلَ التّشبيهيّ مُختلفٌ، فرَضتْهُ ضُروبُ التّبديلِ وصروف الحياةِ المتغيّرة، فاستُبدلَتْ بالأساريعِ والمساويكْ أغصانُ الفضّة المقوّمة، تُحلّى بالعقيق والجواهر.

1 بين الجِذع والأراك

اعترض الآمدي ـ مدعّما رأيَ آخرين[50] ـ على أبي تمّام، فلمْ يقبلْ ضمّ "الجِذع" إلى "الأراك"، وأنْكر هذا التّركيب ـ وهو تشبيهٌ ـ وعدّهُ بعيدا مُجانبا للصواب، لأنّه غيرُ معهودٍ ولا معروفٍ.

يقول أبو تمّام[51]

هاديهِ جِذْعٌ منَ الأراكِ وما　　　تحتَ الصَّلا منْهُ صَخرةٌ جلْسٌ

اعتادتِ العرب أن تقرِنَ بين هادي الفرسِ (عُنقه) وجُذوع النّخل، لا شجر الأراك. فمتى كان لِشجر الآراك جُذوعٌ فيما يعرفون!، لأنّ "عيدان الآراكِ لا تغلُظُ حتى تصيرَ كالجُذوع، ولا تُقاربها"[52].

ورغم أنّ الحَسن بن بِشر يلتمسُ في أشعار العرب أبياتا عِدّة، أُسْنِدتْ فيها الجُذوعُ لأنواع مختلِفةٍ من الأشجار، كَشجر السّاج والأوقال مثلا، فقد قال ذو الرّمة[53]

وهادٍ كَجذع السّاج سامٍ يقودُه　　　مُعرَّقُ أحناءِ الصَّبيّينِ أشدقُ

فإنّهُ ـ أيِ الآمدي ـ لمْ يُجزْ ولم يسمحْ للطّائي أنْ يقرِن بين العُنق وجذع الأراك بجامع الغِلظة والهيئة، "فَعُودُ الأراكِ منْ أبعدِ شيءٍ منْ ذلكَ، لأنّهُ لا يمتدّ ولا يستوي استواءَ الجِذع"[54].

2 بين الحِلْم والخِفّة

ارتبطتْ فضيلة الحِلْم في معهود النّاس وأذهانهم بالشيء العظيم البالغ الكِبر، فدرَجَ معظمُ الشعراء على إسناد هذه المنقبة الفضلى إلى الرّزانة[55] والعِظَم، لذلك شبّهوها بالجبال والأجسام الثّقال بجامع القوة والثّقل. ولما جاء أبو تمّام بِبيته، أُنْكر عليه، أنكره أبو العباس (الذي يذكره الآمدي) وتبعه أبو القاسم وشدّ في الإنكار.

يقول أبو تمام[56]

رقيقُ حواشي الحِلْمِ لوْ أنّ حِلْمهُ   بِكَفّيكَ ما ماريت في أنّه بُردُ

في هذا البيت استعارةُ أولى (أو تشبيهٌ)، حُذف فيها لفظُ المشبّه به، وهو الشيء الدقيق الحواف، ورُمزَ له بلازمة من لوازمه وهي رقّة الحاشية، فهي استعارة مكنية بجامع الدِّقة والخِفّة. إلا أنّ الطائيّ لم يوفّق كل التوفيق في الجمع بين الملزومين (بتعبير السّكاكي)، فقد رأى غيرُه ألّا لزوم بينهما.

أنكر أبو العباس هذا التشبيه إنكارا شديدا جرّ على صاحبه استهجان النّاس. وهو الرأيُ الذي سار عليه الآمدي، وللاستدلال على رأيه يُقدّمُ أبو القاسم حُججهُ البالغة عشرة أبياتٍ، يربطُ فيها أصحابها كلّهم الحِلمَ ويشَبّهونَه بالشيء الضخم الثقيل، وهذه أبرزُ تلك الحُجج.

يقول النابغة[57]

وأعظمُ أحلاما وأكثرُ سيّدا   وأفضلُ مشفُوعا إليهِ وشافعا

يقول الأخطل كذلك[58]

شُمْسُ العَداوةِ حتّى يُستقاد لهُم   وأعظمُ النّاس أحلاما، إذا قدَروا

يقول الفرزدق أيضا[59]

أحلامنا تَزِنُ الجبالَ رزانَة   وتخــالُنا جِنّا إذا ما نَجْهَلُ

وبيْتٌ آخر للفرزدق[60]

إنّا لَتُوزنُ بالجبال حُلومُنا   ويزيدُ جاهلنا على الجُـهّال

فالحِلمُ عظيمُ الشأنِ، فأوجبَ ذلك بالتّبَعِ أنْ يكونَ المشبّهُ به عظيم الحجم، قرينا للجبال وكلّ ذي قوةٍ ورزانة. جامع الشبَه كامنٌ بالقوةِ في أذهان الشاعر ومتلقّيه، لا يَنقصُ غير إخراجهِ بالفعلِ تشبيها لا يُنغّص على الناس والنّقّاد ما ألفوه وما اعتادوه. فوجه الشّبه المجاز ما جَمَعَ بين الطّرفين على وجه الضّخامة والثقل، وما عدا ذلك عُدّ ردّا على صاحبه.

لم تقف حججُ الآمدي تشجب هذا الرباطَ، بل زادت تُعزّز موقفها، تُخطئ الشاعر وتُنكرُ عليه الجامع الذي أنشأهُ، "ألا تراهُم إذا ذمّوا الحِلْمَ، كيف يصفونهُ بالخِفّةِ"[61].

وهي خمسةُ أبياتٍ، وكأنّه يعلّمُ الشاعرَ الوجهَ الذي يجب أن يكونَ عليه وصفُ الحِلمِ زيادة أو نُقصانا، أو هو وجهُ الشّبه الصحيح الذي يجب أن يكون في المشبّه بِهِ، إنشاء للتشبيه المقبول. ومنها:

يقول عياض بنُ كثير الضبّي

تنابلةٍ سُودٍ خِفافٍ حُلومُهم   ذوي سربٍ في الحيّ يغدو ويطرُقُ

وآخرَ لِعُقيبة بن هبيرة الأسدي

أبنو المُغيرة مثل آل خُويلدٍ   يا للرجّال لِخِفّة الأحلامِ

وثالثٌ لقيس بنِ عمير الكناني

كمثلِ الحصى بكرٌ ولكنْ خيانةٌ   وغَدْرٌ وأحلامٌ خِفافٌ عوازبُ

هي أبياتٌ في الهجاء، وُصف فيها الحِلمُ بالخفّة لا غير (خفافٍ حُلومهم ـ لِخفّة الأحلام ـ أحلامٌ خفافٌ) وهو تقيّدٌ بِتشبيه الشيء بما عُرف به. فكأنّ وجهَ الشّبه معقودٌ قبلا في أذهان القائلين وأسماع المتلقّين، "فهذه طريقةٌ في وصفهم للحِلم، ولما مدحوهُ بالثّقل والرزانة، ذمّوه بالطيش والخِفّة"[62].

3 بين الدّهر والأخدَع

يباشرُ الآمدي شِعر أبي تمّام بهذا الاستفتاح "ما جاء في شعر أبي تمّام من قبيح الاستعارات"[63]، فمن مرذول الاستعارات ـ بلفظ الآمدي ـ قوله

يا دهْرُ قوّمْ من أخدَعيْكَ فقدْ   أضْجَجْتَ هذا الأنامَ من خُرُقك

يؤاخذُ عليه أن شبّه الدّهرَ بالإنسان، فقدِ أرّقهُ ما في البيت من تشخيص الدّهر[64]، وجمعَ بين الدّهر والإنسان بجامع التشخيص والحياة، فاستعار للدّهر لفظ "الأخدعين"، وكنّى عن هذه الاستعارة.

يرى الآمدي أنّ الجمع بين هذين الطرفين بعيدٌ مُغرقٌ في القُبح، فلمْ يُجز لهُ، أنْ جعلَ "مع غثاثة هذه الألفاظ ـ للدّهر أخدعا"[65]. فطرفا التشبيه يقفان ـ حسب الآمدي ـ على طرفي نقيض، وبين المستعار منه والمستعار له مسافة بعيدة، يقطعها السامع مُتعبا في كدّ وإجهاد "وإنّما استعارتِ العربُ المعنى لما ليس [هو] له، إذا كان يقاربهُ أو يُناسبهُ أو يُشبههُ في بعض أحواله"[66]، والمتأمّلُ للبيت يجدْ أنّ الآمدي لا ينكرُ تشبيه الدّهر بالإنسانِ، ولكنّ الإنكار كان على لوازم المشبَّه به، فأبعدُ ما يكونُ أنِ يُجعل للدهر عِرْق يُرجى تقويمُهُ.

في موضع آخر يستطرد الآمدي رادّا على أبي تمّام تشبيهَ الدّهر بالإنسان واستعارة الأخدع له، "فأيّ ضرورة دعتْهُ إلى الأخدعينِ، و[قد] كانَ يُمكنهُ أنْ يقولَ : قوّمْ مِن اعوجاجك، أو قوّمْ مُعوجّ صُنعِك، أو يا دهرُ أحسنِ بنا الصّنيع"[67]، كان يمكنُ أن يقول دونَ أنْ يُشبّه الدّهر، وأنْ يجعلَ لهُ أخدعينِ.

4 بين الحِلْم والبُردِ

لمْ يُوفقْ أبو تمام أيضا في استجلابِ جامعٍ بين الحِلْم والبُرْد، فقد جعل لهما مشابهَةً هي الرّقّة والخِفّة، فيعترضُ أبو القاسم اعتراضا على وجهِ الشّبه ذلك، "فإنّ البُرد لا يوصفُ بالرّقّة، وإنّما يوصفُ بالمتانة والصّفاقة"[68].

والآمديّ الحَكَمُ العدْلُ بين الطّائيّيْن، يعجبُ كيف تمكّن هذا الخطأ من البُحتريّ، واندسّ في بيتٍ له، يقولُ فيه[69]

وليَالٍ كُسِين من رقّة الصّيــف فخُيّـلنَ أنّهنّ بُرودُ

فما كانَ لأحدٍ منَ الطّائيّيْنِ أنْ يجعلَ للبُرود معَ شبيهها جامعا هو الرّقة والخِفّة، فقد تمادى أبو تمّام في وصفِ الحِلم بالبُرْد خِفّة، وكذلك فعلَ البحتريّ عندما جعل لرِقّة الصّيف شبيها هي البُرود، وفي ذلك يقولُ الآمدي "وإنّي لأعجبُ من اتّباعِ البُحتريّ إياه [أيْ أبا تمّام] في البُرْد، مع شدّة تجنّبه الأشياء المنكَرة عليه"[70]. والفصلُ في ذلك أنّ وجْه الشّبه المقبول في الإسنادِ إلى الحِلْمِ هو مع الثّقل والرُّجحانِ، لا يحيدُ صاحبهُ عن المذهب الصّحيح المعروف، ومن شعر البُحتريّ يستدلّ الآمدي

فلَوِ وُزِنَتْ أركانُ رضوى ويَذْبُلٍ وقيسَ بها في الحِلْمِ خفّ ثقيلها

5 بين الإبلِ والتقريب

يُخطّئ الآمدي أبي تمّام في كثير من استعاراته، كما يُخطّئه في جامع التشبيه المستحيل. يقول أبي تمام واصفا سير الإبِل [من الطويل]

كالأرْحَبيّ المُذكّى سيْرُهُ المَرطى والوَخْدُ والملعُ والتقريب والخَبَبُ[71]

في هذا البيت يجمع الطائيّ بين الإبل والخيل بجامع طريقة العَدْوِ والسّير، إلّا أنّ لكلٍّ طريقة سيره، فليس (التقريبُ من عدْوِ الإبلِ، وهو في هذا الوصف مُخطئٌ، وقد يكون التقريبُ لأجناس من الحيوانِ، ولا يكون للإبل)[72].

التّشبيه ذو المُقدّمة الخاطئة

1. حَواشِي الوَشائع

لمْ يُجزِ الآمدِي لأبي تمّامِ أنْ يُنشئ علَقة التّشبيه بِطرَفٍ خاطئٍ، ينبو عنهُ وجهُ الشّبهِ الّذي يُرادُ لهُ أنْ يجمَعَ بينهما، ففي البيت[73]

شَهِدْتُ لقدْ أقوتْ مغانيكمْ بعدي   ومحّتْ كما محّتْ وشائعُ مِنْ بُردِ

عَقدٌ للشّبهِ بينَ مُتقابِلينِ، المغاني المقويةُ ووَشائعُ البُردِ الممحاة، فجعلَ الوَشائعَ حواشيَ الأبراد، أيْ أطرافُها، وليس الأمرُ كذلكَ في نظرِ الآمدي. فالوشائعُ هي لُحمةُ الغَزْل وكُتلَتهُ، وليستْ أطرافَهُ، ولا حوافَهُ. بلْ إنّ الآمدي يأتي بالدّليل على خطإ أبي تمّامٍ منْ شِعرِ أبي تمّامٍ نفسِه، فيستدلُّ بالبيت التّالي الّذي جاءَ فيه استعمال كلمة "التّوشيع" صحيحا[74].

الجدُّ والهزلُ في توشيعِ لُحمَتِها   والنّبلُ والسّخْفُ والأشجانُ والطّربُ

2. بين الشّعلة وشِيبِ المفْرق

يعقدُ أبو تمّامٍ تشبيها بينَ انتشار البياضِ على صهوتَي الفَرس، وبينَ انتشار الشّيبِ في مفرِقَي الإنسان، فيقولُ[75]

وشُعلةٌ تبدو كأنّ فُلولـها   في صهوتَيهِ بدْءُ شيبِ المفرقِ

يُنبّهُ الأمدي إلى أنّ مقدّمة التّشبيهِ خاطئةٌ، فيترتّبُ على ذلكَ خطأ انعقاد التّشبيه، ومقدّمتهُ الخاطئةُ هي طرفُهُ الأوّل، أي المشبّهُ، والمشبّهُ في البيتِ هي الشّعلةُ، " وهو خطأٌ منْ وجهٍ آخر، وهو أنْ جعلَهُ شُعلةً، والشّعلةُ لا تكونُ إلّا في النّاصية أو الذّنب"[76]، وبهذا لا يُمكنُ للشّعلة، أنْ ينتشرَ بياضُها في الصّهوتَينِ، أيْ موضِع ركوب الفارس، فالشّعلة غيرُ الصّهوة.

3. بين البيْنِ والوَصلِ.

يُجاوِرُ أبو تمّامٍ بينَ البيْنِ والوصْل، وهما نقيضانِ، فيُشبّهُ الوصْلَ البطيءَ والمِطْلَ بمَشْي الأكبَدِ[77]، يقول أبو تمّامٍ[78]

جارى إليه البينُ وصل خريدةٍ   ماشَتْ إليه المطلَ مشيَ الأكبدِ

يتأبّى التشبيهُ في نظرِ الآمدي على الانعقادِ لِخَطلٍ في المشبّه، فالبيْن يُجاري الوصْلَ، وهذا مُحالٌ. فبُعدُ المرأة يصِلُ وصْلا متثاقلا، مثل مشْي الفرس الذي به كبدٌ. فكيفُ للبيْنِ ـ وهو المشبّهُ ـ أنْ يصل!

فطرف التّشبيه الاوّل يرفضُه ميزان العقل، كما يرى ذلك الآمدي، وهو ما جعلهُ يُعلي منْ صوتِه مُنْكرا "فيا معشرَ الشّعراء والبُلغاء، ويا أهل اللّغة العربية، خبّرونا كيفَ يُجاري البينُ وصلَها، وكيف تُماشي هيَ مَطْلَها! ألا تسمعون، ألا تضحكون!"[79]

يسترسلُ أبو القاسم باسطا سُلطة النّقدِ على كثيرٍ منْ تشبيهات شعر أبي تمّام، ومثلُ ذلك فعلَ . وإنْ بِنسبةٍ أقلّ . معَ البُحتُري، وهي السّلطةُ النّقديةُ العائدةُ إلى عُرفِ النّاس وعُرفِ اللّغة. يُجيزُ ما يُجيزانِه ويُخطّئُ ما يُخطّئانِه، مُتّبعا في ذلك الدّليل والأثر، ومثال على ذلك قول البُحتريّ[80]

ذَنَبٌ كما سُحِبَ الرّداءُ يذُبُّ عنْ عُرْفٍ، وعُرْفٌ كالقِناعِ المُسْبَلِ

يُخطّئُهُ في هذا التّشبيه مرّتينِ، المرّةُ الأولى عندما يُشبّهُ رِداءَ العروسِ بِذَنَبِ الفرَس إذا مسّ الأرْضَ، والآخِرةُ في هيئتِهما مجرورَين ومسحوبيْنِ على الأرض، فطولُ الذّيلِ وسحْبهُ عيّبَ التّشبيه. يَستدلُّ على صحّةِ رأيِهِ بِبيْتٍ لامرئ القيسِ، يدورُ حولَ التّشبيهِ ذاتِه، غيرَ أنّ الشّاعر الضّليل يَعقدُهُ العَقْد الصّحيحَ الذي لا يُناقضُ لا العقل ولا العُرْفَ، فيقولُ[81]

لها ذَنبٌ مثل ذيلِ العروسِ تسدّ بها فرْجها منْ دُبُر

فلا الذّيلُ ولا الذّنبُ يَمسّان الأرضَ في بيتِ امرئ القيس، ولا هو أرادَ أنْ يجمعَهما جامِعُ الطّول، "فلمّا قال (تَسدُّ بِهِ فرْجها) عَلِمنا أنّهُ [إنّما] أراد الكثافةَ والسّبوغَ مع الطّول، فإذا أشبهَ الذّنبُ الطّويلُ [ذَيلَ العروس] منْ هذه الجِهة، وكانَ في الطّولِ قريبا منهُ فالشّبَهُ صحيحٌ، وليس ذلكَ بِموجِبٍ للعَيبِ"[82].

خاتمة

عُدّ التشبيهُ مضمارَ الشّعراء، وتلقّاهُ السّامعُ بِمزيد شَغف وقبول. فقد كان مطلوبا من الشاعر أنْ يفخرَ ويهجوَ ويمدحَ ويرثي منْ بينِ مهمّات أخرى، وكان عليه في خضّم ذلك أنْ يلجأ إلى آلية التشبيه، وهي الآلية التي تقوم على استبدال الصّور بعضها ببعض.

في ذلك الزّمن البعيد كانت اللغة الأداة الوحيدة للتّصوير واستحضار الغائب إلى الأذهان، وإنشاء عالم الصّور، الممكن منها، وغير الممكن، فسحَرَ النّاسَ بيانُ الشّعر وصُورُهُ. وكانَ المجيدُ من الشعراءِ من يقرنُ بين الأشياء، ويعقد علائق لمْ يكن ليُؤبهَ بها لولا بيتُ الشّعر المصوّر المشبِّه. كان الشاعر يقدّم للناس عالما آخر بديلا متخيّلا، وكان التشبيهُ وسيلتَهُ الأولى لتحقيق هدفه، وإظهار ما لا يراهُ النّاس، فهذا الرّبط بين طرَفي التشبيه ـ في حّده الأدنى ـ فاعلية تفاضل فيها الشّعراء وامتازوا، لكنّ مؤسّسة النقد وحرّاس اللغة لم يسوغوا كلّ إبداع أو مجاز.

فلمْ تُجِزْ سُلطةُ النّقد ـ مُمثلّة هنا بالآمدي ـ إلّا ما تُجيزُهُ سلْطةُ اللغة، وأمامَ الشاعر معترَكٌ واسعٌ من الإبدالاتِ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، شرطَ ألّا يُغمضوا على النّاس ويوعّروا عليهم. إنّ قانون اللغة وما عهدهُ النّاس هي حدود ذلك المعترك، وينبغي على الشّاعر أنْ يقطعَه مُؤمنا بأنّ التّوسّع أو التجوّز أمرٌ مسيّجٌ بِقرينة العُرف والعقل، لذلك انبرى أبو القاسم يكبحُ جماحَ الشّاعر الجامح، السّاعي إلى كسر التّقاليد والصّور المعهودة.

فالذهابُ بالألفاظ ومعانيها حدّ التماهي، يُفقِدُ الأشياءَ حقيقتَهَا، ويجعل الغَيْريَة والتمايُزَ بين الكلِمِ وما تعنيه أمرا مباحا يذهبُ بالمعاني ويُسقطُ في فوضى الفهم، عندما تنزاحُ الحُدودُ وتنداحُ الأسوارُ، وتكونُ النّتيجة كثيرا من المعنى المضطرب والدلالة المرتبكة والوهْم.

الهوامش:

[1] النكت في إعجاز القرآن، الرمّاني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ت محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف مصر، القاهرة، ط2، 1968، ص 74.

[2] الصناعتين، كتاب الصّناعتين: الكتابة والشّعر، أبو هلال العسكري، ت علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1986، ص 239.

[3] الكامل في اللغة والأدب، أبو العباس المبرّد، ت محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ط1، 1986، ج2، ص 377.

4 أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تعليق محمود محمد شاكر، دار المدني، جدّة، ط1، 1991، ص 90.

[5] أسرار البلاغة، م م، ص 143.

[6] الكامل، م م، ج2، ص 377.

[7] الايضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط4، 1975، ج 2، ص 377.

8 البلاغة، تطور وتاريخ، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط2، ب ت، ص 105.

[9] العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، ت محمد محيي الدين عبد الحميد، ب ت، دار الرشاد الحديثة، ج1، ص 296.

[10] الموازنة بين شعر أبي تمّام والبُحتري، الآمدي، تحقيق أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط2، 1972، ج1، ص139.

11 الموازنة، م م، ج 1، ص 139.

12 سرّ الفصاحة، ابن سِنان الخَفاجي، راجعهُ إبراهيم مكّي الطنطاوي، دار الغد الجديد، القاهرة، ط1، 2019، ص 271.

13 سرّ الفصاحة، م م، ص 271.

14 سرّ الفصاحة، م م، ص 272.

15 شرح ديوان امرئ القيس، تحقيق حسن السّندوبي، دار إحياء العلوم، بيروت، ط1، 1990، ص 172.

16 طائر سريع النّفر.

17 جنسٌ منَ الغنمِ، قبيحُ الشّكل.

18 القُطر.

19 الصّناعتين، م م، ص 216.

20 يزيد بنُ الطّثرية، الديوان، تحقيق صالح الضامن، مطبعة أسعد، بغداد، 1973، ص 26.

21 نقد الشّعر، قدامة بنُ جعفر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، مصر، 1963، ص 129.

22 ديوانُه ص 115، وفيه "سَعَفٌ" بَدلَ "شَعرٌ".

23 الوساطة، علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، ب ت، ص 10.

24 يُنظرُ الهامش رقم 4 من الوساطة، ص 10.

25 لم نعثر عليه في ديوانه.

26 الوساطة، م م، ص 10.

27 الوساطة، م م، ص 13.

28 المزهرُ، السّيوطي، شرح محمد أحمد جاد المولى بك ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، مكتبة دار التراث، القاهرة، ج2، ب ت، ص 313.

29 الشمّاخ بنُ ضرار الذّبياني، الدّيوان، ت صلاح الدين الهادي، دار المعارف، مصر، ب ت، ص 334.

30 زهير ابن أبي سُلمى، الديوان، شرح علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1988، ص 33.

31 اليرندجُ الجِلْدُ الأسودُ أو الصّبغُ الأسودُ.

32 ديوانهُ، ص 173.

33 كعب بن زهير، الديوانُ، تحقيق علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997، ص 38.

34 الطيالسةُ واحده طيلسان كِساءٌ أخضر يلبسهُ الخواص منَ المشايخ والعلماء.

35 ذو الرّمة، الديوان، شرح أحمد حسن سبج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1955، ص 66، وفي الدّيوان "وليلٍ كأثناءِ الرّويزيّ جُبتهُ"، أثناءِ الرّويزيّ: أطراف الطّيلسانِ الأسودِ.

36 النّابغة الذبياني، الديوان، شرح عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 3، 1996، ص 56.

37 بشّار بن بُرد، الّديوانُ، تحقيق محمد، الطاهر بن عاشور، منشورات وزارة الثقافة الجزائرية، 2007 ص 335

38 ديوانهُ، ص 44.

39 لمْ نعثر عليه في ديوانه.

40 العسكري، الصّناعتين، م م، ص 229.

41 العمدة، م م، ص 286.

42 ديوانُه، ص 183.

43 العمدة، م م، ص 296.

44 عنترة بن شدّاد، الديوان، تحقيق محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، القاهرة، 1964، ص 198/197.

45 ديوانُه، ص 30.

46 خُزرا، واحدُهُ أخزرُ وهو الضّيق العين، المرانِبُ أي الفِراء.

47 العمدة، م م، ص 298.

48 ديوانُهُ، ص 172.

49 لمْ نعثر عليه في ديوانه.

50 يوردُ الآمدي اسم أبي العباس أحمد بن عبد الله بن محمد بنُ عمّار القطربلي المعروف بالعزيز (الفريد).

51 أبو تمّام، الديوان، راجعهُ عبد الحميد يونس وعبد الفتاح مصطفى، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، ب ت، ص125

52 الآمدي، الموازنة، م م، ج1، ص 142.

53 ذو الرّمة، الديوان، شرح أحمد حسن سبج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995، ص 182.

54 الموازنة، م م، ج1، ص 143.

55 الرّزينُ: الثّقيلُ في كلّ شيء، وقد رزّنتهُ بيدي إذا ثقلتُه، والرّزانة في الأصل الثّقلُ. (لسان العرب، مادة ر ز ن، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط2، 1997، ج 5، ص 266.

56 ديوانه، ص 91.

57 لم نعثر عليه في ديوانه.

58 الأخطل، الديوان، شرح مهدي محمد ناصر الدّين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1994، ص106.

59 الفرزدق، الديوان، شرح علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987، ص 491.

60 ديوانه، ص491.

61 الموازنة، م م، ج، 1 ص 145.

62 الموازنة، م م، ج1، ص 146.

63 الموازنة، ج 1، ص 261.

64 الصورة الفنّية في التراث النّقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، ط3، 1992، ص218.

65 الموازنة، ج1 ص 265.

66 الموازنة، ج1 ص 266.

67 الموازنة، ج1 ص 271.

68 الموازنة، م م، ج1، ص 146.

69 البحتري، الديوان، تحقيق حسن كامل الصّيرفي، المجلد 1، دار المعارف، مصر، ط3، 1964، ص 723.

70 الموازنة، م م، ج1، ص 146.

71 الأرحبيّ من الإبلِ منسوبُ إلى أرحبَ، وهو حيٌ من همذانَ، تُنسبُ إليه النّجائبُ (الموازنة، م م، ج1، ص 238.)
المذكّى المسنّ من كل شيء [..] جريُ المذكياتِ [..] أنْ تُغالب الجريَ غلابا (اللسان، م م، ج 5، مادة ذ ك ي، ص52/51).
فرسُ مَرطى سريعُ وكذلك النّاقة (اللسان، م م، مادة م ر ط، ج 13، ص 83).
الوخد: الاهتزاز في السّير (الموازنة، م م، ج1، ص 238).
الملْعُ السّيْرُ الخفيفُ السّريعُ دونَ الخَبب [...] أبو عُبيد الملْعُ سُرعةُ سيرِ النّاقة (اللسان، م م، مادة م ل ع، ج 13، ص180/179)..

72 الموازنة، م م، ج2، ص 238.

73 ديوانه، ص 96.

74 ديوانهُ، ص 41.

75 ديوانه، ص 159، وفيه" وبِشُعلةٍ نبذٍ كأنّ فلولها في صهوتَيهِ بدءُ شيبِ المفرِقِ"

76 الموازنة، م م، ص 251.

77 الأكبدُ الفرسُ الّذي بِكبِده مرَضٌ يُبطئ سيرَهُ.

78 ديوانه، ص 84.

79 الموازنة، م م، ص 280.

80 ديوانه، المجلد 3، ص 1746.

81 لم نعثرْ عليه في ديوانه.

82 الموازنة، م م، ص 372.